العُرْبُ أمةٌ واحدة، ليس فيها عربٌ عاربة، وعربٌ مستعربة

أ ـ إننا لا نجرح علماء التاريخ واللغة الأقدمين إذا قلنا: إننا عرفنا ـ في القرن العشرين، والحادي والعشرين ـ من تاريخ العرب ولغتهم ما لم يعرفوا، وإننا تسلحنا بالمعارف التي نستطيع أن نردّ بها (الإسرائيليات) أكثر مما تسلحوا به؛ فقد أعدّوا ما استطاعوا إعداده في زمنهم، حسب رؤيتهم لمقدار الضرر الذي يلحق بالأُمة من الاعتماد على (الإسرائيليات)، أو نقل الإسرائيليات في تدوين التاريخ العربيّ.

فقد قسَّم ابن كثير في «تفسيره» الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما علمنا صحته مما بأيدينا.

والثاني: ما علمنا كذبه مما بأيدينا.

والثالث: المسكوت عنه...

والقسم الثالث، أجازوا حكايته؛ لأنه ـ في زعمهم ـ مما لا فائدة منه تعود إلى أمر ديني. يريدون أنه لا يخالف العقيدة الإسلامية، ولهذا قال لي أحد فقهاء فصيل إسلامي: إن الخلاف بيننا وبين اليهود «عقديّ» فقط، وكأنه يفصل بين العقيدة والسياسة، أو العقيدة والوطن والتاريخ، ولا مانع يمنعُ عندهم من نقل الأخبار اليهودية التي تقول: إنَّ داود (اليهودي) بنى مدينة القدس، وإن (سليمان اليهودي) بنى المسجد الأقصى، أو بنى «الهيكل» في مكان المسجد الأقصى، أو ما يسميه اليهود «جبل الهيكل».

وقد ثبت ـ في القرن العشرين ـ أن قصة الهيكل خرافية، وأنه لم يوجد بناءٌ على وجه الأرض اسمه «الهيكل»، لا في القدس، ولا في غيرها، وثبت أن داود وسليمان المذكورين في كتاب يهود، لم يعيشا في القدس.

ب ـ ونقل النسابون العرب نسبَ أصل العرب عن كتاب يهود المسمى: التوراة، وبناءً على ما جاء في كتاب يهود، قسموا العرب إلى عَرَبَيْن: عرب عاربة، وعرب مستعربة.

ونقل ذلك ابن منظور في «اللسان» فقال:

والعرب العاربة: هم الخُلّص منهم، وأُخذ من لفظه، فأُكّد به؛ كقولك: «ليل أليل»، أو «ليل لائل»، تقول: عرب عاربة، وعرباء؛ أي: صرحاء.

و«متعرّبة» و«مستعربة»: دُخلاء، ليسوا بخُلّص.

وجعلوا جدّ العرب العاربة الخُلّص: قحطان، وهو أبو اليمن كلّهم، وهم العرب العاربة.

قال ابن منظور: ونشأ إسماعيل بن إبراهيم معهم، فتكلّم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة.

يعني: أنه لم يكن إسماعيل من أصل عربي، فاستعرب بسبب لسانه فقط. كما استعرب فيما بَعْدُ: الفارسي والروميّ.

وكلام هؤلاء النسابة باطل، مستنكر، ولا يكتبُ إلا لردّه، وتفنيده.

1 ـ الأنساب التي ذكَرها كتبة التوراة، ابتداءً من أولاد نوح الثلاثة، ليس فيها سندٌ صحيح، بل هي من اختراع هؤلاء المؤلفين ـ والتوراة الموجودة بين أيدي اليهود، ليست التوراة المنزلة على موسى ـ فقد أجمل القرآن القول في قصة نوح في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: 40]. فقد حمل نوح معه في السفينة من البشر «أهله، ومَنْ آمن» ولا ندري مَنْ هم أهل نوح، ولا ندري مَنْ هم الذين آمنوا معه.. وأما العدد، والأسماء المذكورة في بعض كتب التفسير، فهي منقولة عن التوراة التي ألفها رجال يفصلهم عن زمن موسى ألف سنة أو يزيد، ويفصلهم عن زمن نوح عشرات الألوف من السنين، فلا نصدق منها شيئاً.

2 ـ وأخذ النسابون العرب اسم قحطان (أصل العرب العاربة) عن التوراة، واسمه في التوراة «يقطان» بالطاء المهملة، بمعنى «يقظان» بالظاء المعجمة. وهو ـ كما زعموا ـ ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح.

وذكر كتاب يهود أسماء أبناء «يقطان» الذين تفرع منهم شعوب العرب العاربة، وحددوا الموطن بأنه بلاد اليمن.

ولما أراد النسابون العرب إيجاد تعليل لاسم «العرب»، اختلقوا اسم «يعرب» ابن قحطان، وقالوا: هو أول مَنْ أنطق الله لسانه بلغة العرب، وهو أبو اليمن كلهم.

3 ـ أما كيف زعموا أن إسماعيل من العرب المستعربة، فهو مبني على ما سبق في الفقرة السابقة: فقحطان في زعمهم كان بعد نوح، بل هو من أحفاد نوح، وقد وُلد إسماعيل بعد نوح بزمن طويل، وقد تحدد العنصر العربيّ. وعرفوا أن إسماعيل هو ابن إبراهيم المولود في «بابل» بالعراق، وهاجر إلى الشام، ثم هاجر ابنه إسماعيل إلى مكة بعد استقرار اسم العرب كما زعموا، وبعد نشوء لغة العرب.. فهو إذن غريب الديار، غريب اللغة كما توهموا.. وتعلم إسماعيل اللغة العربية من قبيلة جُرهم اليمانية، فاستعرب لسانه.. فجاء منه «العرب المستعربة»، وهكذا بنوا حكماً خاطئاً على أخبار كاذبة موهومة.

4 ـ **والحقيقة أن العرب أُمة واحدة**، يجمعها المكان، وهو جزيرة العرب، وتجمعها اللغة، وهي اللغة العربية العتيقة في لهجاتها المتعددة، ثم اللغة العربية الفصيحة الجديدة التي دام وجودها واستمرارها من حوالي 500ق. م إلى القرن الحادي والعشرين الميلادي، وإلى يوم تقوم الساعة. ويجمعها أيضاً النسب بين 90٪ ممن استقرّ بهم المقام في جزيرة العرب. فجزيرة العرب من الأماكن القليلة في العالم التي بقي العرق فيها متوحداً إلى درجة عالية. ومن النادر في تاريخ جزيرة العرب أن جاء قوم غريبون عنها، وطردوا أهلها واستوطنوا فيها ودام استيطانهم، فالغزوات التي ذكرها التاريخ كانت عابرة سبيل، وقد تقيم مدة، ثم تطردها الأرض العربية.

5 ـ الشواهد على أن العرب أمة واحدة :

أ ـ من الشواهد الصحيحة في وحدة العرب قول الله تعالى في سورة الحج ، يخاطب العرب قاطبةً : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [سورة الحج ، الآية : 78] .

وقد صرف المفسرون لفظ «أبيكم» عن الحقيقة إلى المجاز ، متأثرين بما جاء عن النسابين مما ذكرناه آنفاً .

فقال الزمخشري في «الكشاف» : فإن قلت : لم يكن إبراهيم أباً للأمة كلها ، قلتُ : هو أبو رسول الله ، فكان أباً لأمته ؛ لأن أُمة الرسول في حكم أولاده .

قلتُ : وهذا صرف لظاهر اللفظ عن معناه الحقيقي ، بدون شاهد صحيح . وإبقاء اللفظ على معناه المعروف (الأبوّة) أقوى من جعله أباً روحياً ؛ لأنه يجمع بين ما يكون من حبّ الأب لأبنائه وحرصه على إرشادهم ، وبين صفة النبيّ الذي يكون رحيماً بأمته ، ولذلك كان يرسل الله النبيّ إلى قومه ، وبلسانهم . .

هذا ، وسورة الحج مدنيّة حيث أسلم العرب كافة : يمنهم ، ومعدّهم ، فالخطاب موجه إلى العرب كافة .

ب ـ ومن الشواهد الصحيحة على وحدة العرب ، ما بوّبه البخاري في «كتاب المناقب» من كتاب الصحيح : «باب نسبة اليمن إلى إسماعيل» منهم أسلمُ بن أفصى ابن حارثة بن عمرو بن عامر من خُزاعة ، وروى حديث : خرج رسول الله على قوم من أسلم يتناضلون (يتسابقون في الرمي) بالسوق ، فقال : «ارموا بني إسماعيل ؛ فإن أباكم كان رامياً . . » .

وفي الحديث أن بني «أسلم» جعلهم النبيّ ﷺ من أبناء إسماعيل ، وهم عند أهل النسب من أهل اليمن المنسوبين إلى «قحطان» . . واستشهدوا على صحة ما جاء في عنوان الباب وموافقته لما جاء في الحديث بقول المنذر جدّ حسان بن ثابت ، وهو من الخزرج .

ورثنا من البهلول عمرو بن عامر ... وحارثة الغطريف مجداً مؤثلا

مآثر من آل ابن بنت ابن مالك ... وبنت ابن إسماعيل ما إن تخوّلا

ونقل ابن حجر في «الإصابة» (جـ6/ 537) عن الزبير بن بكار: أن قحطان من ذرية إسماعيل، وأنه قحطان بن الهميسع بن تيم بن نبت بن إسماعيل.

وفي حديث آخر رواه البخاري في قصة هاجر أُم إسماعيل، رواه أبو هريرة وقال في آخره: «فتلك أُمكم يا بني ماء السماء»، «وماء السماء» يريد بهم: الأنصار، فهم من اليمن، كما قال النسابون، و«ماء السماء» جدّ من أجدادهم.

.. ومع ذلك فقد جهد ابن حجر العسقلاني في صرف المعنى عن الأبوة الحقيقيّة، وأوّله تأويلاً يوافق الشائع من أقوال النسابين التي تزعم أن بني إسماعيل فصيل لا يربطه بأهل اليمن نسب.

جـ- ونحن نميل إلى القول: إن العرب أُمة واحدة، يجمعهم أبٌ واحد، وإن عدنان وقحطان ينتسبان إلى إسماعيل وإبراهيم.

1- ولكن أبوّة إسماعيل ليست الأبوة الأولى، وإنما هو أحد الآباء، وكذلك القول في إبراهيم: فإبراهيم انتقل من العراق إلى بلاد الشام وهي مسكونة بأقوام من العرب، وانتقل إسماعيل إلى مكة، ووجد هناك قوماً من العرب (جرهم).

2- هناك أقوال كثيرة ترى أن الشعوب العربية، التي أطلقوا عليها اسم «الساميّة» كان موطنها الأصلي في العراق - وادي الرافدين، وانتقلت منها إلى أنحاء الجزيرة العربية،.. وقد انتقل جدُّ عرب الجنوب - القحطانيين - من العراق إلى اليمن. كما انتقل جدُّ عرب الشمال إبراهيم، أو إسماعيل من العراق إلى الشام، ثم إلى الحجاز، و«قحطان» على فرض وجود هذا الاسم انتقل من العراق، وإبراهيم انتقل إلى الشام من العراق، والاثنان لهما أصل واحد في العراق..

وقد تقول: إن قحطان أبو العدنانيين، بوصفه أحد آبائهم، كما يصح القول: إن إسماعيل أبو أهل اليمن، والله أعلم. وبناءً عليه، فإنه لا يجوز تقسيم العرب إلى عربين، عرب عارية، وعرب مستعربة، فهم عربٌ فقط دون وصف.

د- ومما يستهجن، ويسترذل في قولهم: إن إسماعيل أبو العرب المستعربة جعْلُ النبي محمد ﷺ، من العرب المستعربة، وهو سيد العرب وفصيحهم وحكيمهم، وذروة سنامهم...

هـ ـ ويكفي دليلاً على وحدة العرب أن الله تعالى أنزل القرآن بلسانهم جميعاً، وسماهم: «عرباً» دون وصف، فقال تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: 195]، ﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: 103]، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [طه: 113].

و ـ وفي القرآن، والعربية الفصيحة عشراتُ المفردات التي كانت مستعملة في اللهجات العربية العتيقة، بل يوجد في قراءات القرآن الكريم بعض اللهجات العربية العتيقة[1]؛ فالقرآن نزل بلسان عربيّ مبين، ولم ينزل بلهجة قريش وحدها، ولم يخصّ الله اسم العرب بأهل الحجاز أو نجد أو اليمن، بل جعله مطلقاً عاماً كلَّ مَنْ دخل تحت اسم العرب. واسم العرب قديم، يشمل العرب بعد الميلاد، أو بعد الإسلام، والعرب قبل الإسلام.

• **رواية البخاري في قصة إسماعيل:** «وشبَّ الغلام، وتعلّم العربية منهم»؛ أي: من قبيلة جُرْهم. .

1 ـ هذه كلمات قليلة من حديث طويل رواه البخاري في كتاب الأنبياء الباب التاسع؛ وقد جاء في صفحتين، أو صفحتين كبيرتين، قال في أوله: «قال ابن عباس. .»، ويظهر أنه حديث موقوف على ابن عباس، رفع منه ألفاظاً قليلة.

---

(1) نضرب مثالاً لنصب المثنى بالألف. . ففي آية في سورة طه: 63 ﴿ إِنْ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ قراءة ﴿ إِنّ هَـٰذَٰنِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ بتشديد نون إنَّ، و«هذان» بالألف. و«هذان» مثنى. . حقّه أن ينصب بالياء. ولكن رُسم هنا بالألف. فما تفسير ذلك؟ قال الدكتور إلياس بيطار في مقال بعنوان: «أهمية لغات الشرق القديم «اللغات الساميّة» في دراسة النحو العربي (التراث الدمشقية ـ العددان 71 ـ 72 تموز 1998م)، قال بعد أن ذكر اختلاف العلماء في تفسيرها: «والقضية برمتها، قضية تاريخية، كانت فيها الألف الممالة في العربية علامة النصب في المثنى، كما في الأكدية والأوغارتية، لكنها كتبت فيما بَعْدُ في العربية ألفاً طويلة؛ لعدم وجود رسم للألف الممالة في لغة الضاد. . وقد بقيت في العربية رواسب من ذلك التاريخ السحيق لتلك المدة الانتقالية التي تعود إلى وقت كانت فيه الألف الممالة هي علامة النصب قبل أن تطغى عليها الياء، غير الآية الكريمة. وذكر أمثلة لذلك من الشعر والنثر. وانظر أيضاً: «شذور الذهب» لابن هشام (ص 46).

وأخبار الأمم السابقة على الإسلام، إذا لم يأت نصها في القرآن، أو في حديث نبويّ مرفوع، فإنه يجوز لنا أن نتوقف عندها لنقول: من أين للصحابي، أو التابعي، هذا الخبر، ويفصله عنه أكثر من ألفي سنة؟

2 ـ «جرهم» المذكورة في القصة، لا يُعرف لها تاريخ صحيح موثوق.

قال ابن حجر في «الفتح»: «جرهم بن قحطان بن عابر».. وهذا يعني أن زمنه قريب من زمن نوح، وقبل زمن إسماعيل. ونقلنا فيما سبق أن اسم «قحطان» أو «يقطان» من رواية التوراة. كما ذكرت التوراة أبناء قحطان، ومنهم: «هدورام» كما جاء في كتاب يهود، لعله هو «جرهم». وإذا لم نأخذ بحرفية الاسم «جرهم»، فإننا نفترض أن قوماً من العرب الذين كانوا في تلك الديار، قد جاوروا إسماعيل وأمه على ماء زمزم، هل كانوا من قبيلة جرهم، أو من غيرهم؟.. الله أعلم.. لقد كان هذا اللقاء، أو الجوار، بداية استجابة الله دعاء إبراهيم: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾.

3 ـ قوله: «وتعلم العربية منهم».. لقد علق ابن حجر على العبارة السابقة بقوله: «فيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربياً، وفيه تضعيف لقول مَنْ روى أن أول مَنْ نطق بالعربية إسماعيل»..

ولنا في ذيل هذا الكلام تعليقات:

أ ـ يقدر زمن وجود إسماعيل حوالي سنة 2000 ق.م، وكذلك قبيلة جُرْهم التي أخذ منها العربية.. أما جُرهم نفسه جد القبيلة فقد وُجد في زمن أقدم من ذلك، وقد زعم النسابون أنه ابن قحطان، والأخير من أحفاد نوح القريبين من نوح..

ب ـ قوله: «وتعلّم العربية منهم»، هذا قول غريب، إذا كان يريد العربية التي نزل بها القرآن. ومنْ حقنا أن نسأل: هل كانت «العربية الفصحى» التي أدركناها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم هي اللغة نفسها التي كان يتكلمها أسلافنا العرب الأوّلون، أولئك الذين راح ذكرهم يتردد في وثائقنا القديمة، ولا سيما الآشورية منها (ملكات العرب، وجنديبو العربي إلخ..) بدءاً من القرن التاسع (ق.م)، مع العلم أننا نجد تلميحاً إليهم في نقش أكدي/ بابلي أكثر قدماً؟

هذه النصوص التي ذكرت اسم «العرب» بهذا اللفظ، فكيف إذا نسبت «العربية» إلى أقوام من الجنس العربي، أقدم من هذا التاريخ، وهو «قحطان» أو «يعرب» بن قحطان، أو إسماعيل عليه السلام؟.

فقد ذكر الطبري في «تاريخه» العماليق فقال: «عمليق أبو العماليق، وكلهم أمم تفرقت في البلاد، وكان أهل المشرق وأهل عُمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يُقال لهم: «الكنعانيون»، ومنهم كانت الفراعنة بمصر».

وقال: «والعماليق قوم عربٌ لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربيّ، وإن عمليق أول مَنْ تكلم بالعربية».

وقال ابن خلدون في «تاريخه»: «وكانت طسم والعماليق، وأميم وجاسم يتكلمون بالعربية».

وفي «لسان العرب» لابن منظور، مادة «كنع»: وكنعان بن.. فلان إليه يُنسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تضارع العربية».

قلتُ: إن كان الراوي يقصد باللغة التي تعلمها إسماعيل من قبيلة جرهم هي عربيتنا (القرآنية)، فهو زعم مغاير لمنطق التطور التاريخي والاجتماعي، وتدحضه أيضاً آلاف الوثائق والنصوص المكتشفة في بلاد الرافدين والشام، ووادي النيل، و(شبه الجزيرة العربية)، إضافة إلى النقوش القرطاجية/ الكنعانية في شمال أفريقيا وجزر الحوض الغربي للبحر المتوسط (جزيرة كريت). فتلك لهجات سبقت الإسلام بعشرات القرون، ولا يُعقل أن تبقى العربية في تلك القرون على صفة واحدة إلى العصر الإسلامي.

4ـ قال المؤرخون: لقد هيأ الله سوق عكاظ، وأسواق العرب في الجاهلية التي يجتمع فيها العرب من كلّ صُقع؛ لتكون تمهيداً لوحدة اللغة العربية، قبل نزول القرآن.

ويقدرون أن بداية سوق عكاظ كانت قبل الإسلام بقرون قليلة لا تزيد على خمسة قرون، وهذا يعني أنه كان في جزيرة العرب لغات أو لهجات: في المفردات والقواعد..

وقالوا: إن الأسماء المتعددة للسيف، والأسد.. إلخ منها ما هو مترادف، ومنها ما هو لغات أو لهجات عربية.

ويُروى أن أبا هريرة اليماني وفد على رسول الله سنة خيبر، فقال رسول الله لأبي هريرة: «أعطني السكين»، فلم يفهم أبو هريرة حتى أشار رسول الله إليها، فقال: المدية تريد؟ والله ما عرفت أنها السكين حتى اليوم.

وفي الحديث المشهور في كتب اللغة أن الرسول قال: «ليس من امبر ام صيام في امسفر» بلغة رجل من اليمن، فجعل (ام) بدل «ال»يريد: «ليس من البر الصيام في السفر».

وقد أدركنا هذه اللهجة في القرن العشرين، في جنوب المملكة السعودية.

5 ـ ويبدو اختلاف اللهجات العربية زمن نزول القرآن، واضحاً في التوسعة على المسلمين، بجواز القراءة على سبعة أحرف أو عشرة أحرف؛ فقد جاء في الحديث الصحيح: «إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه». ومما قيل في تفسير «سبعة أحرف» أن الكتاب قبل القرآن كان ينزل على حرف واحد، وذلك أن الأنبياء كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين[1] بهم.

وأرسل النبي محمد ﷺ إلى جميع الخلق[2]، وكانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى[3]، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف[4] إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج، لاسيما الشيخ والمرأة، ومَنْ لم يقرأ كتاباً، فلو كلفوا العدول عن لغتهم

---

(1) يعنيُ يرسل إلى القبيلة الموحدة اللسان. والنبي محمد، كان من قريش، ولكنه أرسل إلى قبائل العرب جميعاً.

(2) الصحيح أن يُقال: كان الخطاب الأول موجهاً إلى جميع العرب، ثم إلى الناس كافة. يفهم العربيّ القرآن بالسليقة، ويفهمه غير العربي بالتعلّم.

(3) اللغات والألسنة هنا، بمعنى اللهجات، والأشهر في تفسير «اللهجة»: طريقة نطق الحروف، مع عدم الإخلال بالجذر اللغوي للكلمة. ويفسر هذا المعنى ما يأتي بعده.

(4) قد يؤخذ الحرف هنا على معناه الحرفي، بمعنى الحرف المفرد، كمن يقلبون الكاف عيناً، وتسمى «الكشكشة».

والانتقال عن ألسنتهم، لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع. [النشر في القراءات العشر لابن الجزري جـ1 : 222].

وقال ابن قتيبة في كتاب «تأويل مشكل القرآن»: فكان من تيسير الله أن أمر نبيه بأنْ يُقرِئ كلّ أمة[1] بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم. فالهذلي يقرأ: «عتى حين» يريد: «حتى»، هكذا يلفظ بها ويستعملها. والأسدي يقرأ: «تعلمون وتعْلم»، و«تسْوَدُّ وجوه»، و«ألم إِعهدْ إليكم» كلُّه بالكسر في التاء وهمزة «إِعهد». والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز. والآخر يقرأ: «قيل لهم، وغيض الماء» بإشمام الضم مع الكسر.. و«بضاعتنا رُدّت» بإشمام الكسر مع الضم.. وهذا يقرأ: «عليهم وفيهم» بضم الهاء. والآخر يقرأ: «عليهمو ـ ومنهمو» بالصلة.. والآخر يقرأ: «موسى وعيسى ودنيا» بالإمالة..

قال ابن قتيبة: ولو أراد كلّ فريق من هؤلاء أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً، لاشتدّ ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات، ومتصرفاً في الحركات؛ كتيسيره عليهم في الدين. ا. هـ كلام ابن قتيبة.

6 ـ والمرجح أن العدد «سبعة» لا يُراد به حقيقة العدد؛ بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد السعة والتيسير، وأنه لا حرج عليهم في قراءة القرآن بما هو من «لغات العرب»؛ حيث إن الله تعالى أذن لهم في ذلك. والعرب يطلقون لفظ «السبع، والسبعين، والسبعمائة»، ولا يريدون حقيقة العدد؛ بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾، و﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً﴾..

مع العلم أن «القُراء السبعة» لا يحصرون القراءات في «سبْع»، فالقرّاء في الحقيقة أكثر من هذا العدد، كما أن القراءات تزيد على سبع قراءات.

(1) الأمة: بمعنى القبيلة.

قال سعيد الأفغاني في مقدمته لكتاب «حجة القراءات» : لم يكن كتبة الوحي الذين كان النبي ﷺ يُملي عليهم كلما أوحي إليه شيء من قبيلة واحدة، بل كانوا من قبائل شتى، فيهم القرشي وغيره، وكان الناس ـ على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم ـ في سعة من أمرهم في قراءة القرآن، كلٌّ يقرؤه بلحن (لهجة) قومه، واندرجت هذه الوجوه الكثيرة في تعبير «الأحرف السبعة» الواردة في الحديث، وأريد بها التعدد والكثرة، لا تحديد العدد سبعة.

7 ـ والاختلاف الحاصل بين اللهجة العربية الأخيرة القرشية القرآنية، واللهجات العربية العتيقة التي تسبق العربية الأخيرة بآلاف السنين، هو اختلاف في اللهجة، وصيغة النطق، مع وحدة الجذر، وإليك أمثلة من العربية الكنعانية مقارنة بالعربية الحديثة:

العربية العتيقة	العربية الحديثة
صيدون	صَيْد
جشور	جسر
مايم	ماء
ميلح	ملح
نحس	نحاس
لسن	لسان
شمش	شمس
حمور	حمار
أيالا	الأيّل ـ الغزال
باراق	برْق
داريّا	دُور ـ جمع دار، مدينة داريا
الدامور	تمور، شجرة النخيل
دارين	جمع «دارة» بمعنى دار ومسكن
أوتيك	عتيق
لاهام	لحم
يشمع إيل	إسماعيل (يسمع الله)

العربية العتيقة	العربية الحديثة
داب	دابة
طيابا	طيب
قدموس	قديم
قرت	قرية
دقق	دقيق

. . والكلمات المشتركة الجذور في اللهجات العربية القديمة، وفي العربية الحديثة كثيرة لا حصر لها: في الأسماء والأفعال، والضمائر، وألفاظ الأعداد، وأعضاء الجسم، والألفاظ الدالة على القرابة والحياة الزراعية، والاجتماعية، والدينيَّة.

8 ـ وصلنا إلى القول: إنَّ العربية التي تعلمها إسماعيل من قبيلة جُرْهم ليست العربية التي نزل بها القرآن، العربية التي جُمعت مفرداتها في معاجم اللغة، ووضع لها علماءُ النحو قواعدها. . نَعَمْ: إن في تلك اللغة شيئاً من العربية الأخيرة، وفي العربية الأخيرة شيءٌ من العربية العتيقة. . وكيف تكون العربية القرآنية هي العربية التي عاشت قبل الإسلام بألفي سنة أو يزيد، وكانت أجزاء من الجزيرة العربية يتكلم أهلها عربية مغايرة للغة القرآن في أواخر القرن الهجري الأول؟.

قال أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ) في ردّه الشعر المرويّ لأناس زمن عاد وثمود: «ما لسانُ حمير وأقاصي اليمن اليوم ـ زمن الراوي أو القائل ـ بلساننا، ولا عربيتهم[1] بعربيتنا، فكيف بما على عهد عاد وثمود. . »؟!.

وقال ابن جني في كتاب «الخصائص» ط/ 386 في باب: «فيما يرد عن العربي مخالفاً لما عليه الجمهور»:

---

(1) قوله: «عربيتهم»؛ أي: عربية أهل اليمن، وفيه اعتراف بأن هناك لغات عربية، أو لهجات تختلف عن العربية الأخيرة، وتسمى أيضاً: العربية. وقوله «فكيف بما على عهد عادٍ. . » التقدير، فكيف بعربية قوم عاد وثمود؟ وعاد: قوم النبي هود. وثمود: قوم النبي صالح، والنبيان من العرب، وقد أرسلا إلى قومهما قبل زمن إبراهيم بزمن طويل. . وفيه دليل على قِدم العرب، والعربية.

إذا اتفق شيء من ذلك، نُظِرَ في حال ذلك العربيّ، وفيما جاء به، فإن كان الإنسان فصيحاً في جميع ما عدا ذلك القدر الذي انفرد به، وكان ما أورده مما يقبله القياس، إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الإنسان، فإن الأولى في ذلك أن يُحْسَنَ الظنُّ به، ولا يُحمل على فساده.

فإن قيل: فمن أين ذلك له، وليس مسوّغاً أن يرتجل لغة لنفسه؟.

قيل: قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها، وتأبدت معالمها.

.. ثم قال: وبَعْدُ: فلسنا نشك في بُعْد لغة حِمْير ونحوها عن لغة ابني نزار ـ مضر وربيعة ـ فقد يمكن أن يقع شيء من تلك اللغة في لغتهم، فيساء الظنُّ فيه بمن سُمِع منه، وإنما هو منقول من تلك اللغة.

قال ابن جني: ودخلتُ يوماً على أبي علي الفارسي، خالياً في آخر النهار، فحين رآني قال لي: أين أنت؟ أنا أطلبك. قلتُ: وما ذلك؟ قال: ما تقول فيما جاء عنهم من «حَوْريت»[1]، فخضنا معاً فيه، فلم نحل بطائل منه، فقال: هو من لغة اليمن، ومخالف للغة ابني نزار، فلا يُنكر أن يجيء مخالفاً لأمثلتهم.

9 ـ وقد تنبه إلى هذا، بذكاء الناقد البصير لمتن الأخبار، محمد بن سلام الجمحي في كتاب «طبقات الشعراء» (جـ 1/ 9)؛ حيث روى حديثاً عن محمد بن علي بن الحسين (ت 118هـ) يقول: «أول مَنْ تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه: إسماعيل بن إبراهيم»، فقال ابن سلام بعد رواية الخبر: «ولكن العربية التي عنى محمد بن عليٍّ، اللسانُ الذي نزل به القرآن، وما تكلمت به العربُ على عهد النبي ﷺ، وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا»[2].

---

(1) حوريت: اسم مكان لم تذكره كتب الجغرافية القديمة. والشاهد فيه أنه جاء على خلاف الأوزان المعروفة في النحو المأخوذ من لغة القرآن، والشعر الجاهلي، والحديث النبوي.

(2) يعني أن محمد بن علي راوي الخبر يظن أن اللغة التي تعلمها إسماعيل هي اللغة العربية الأخيرة، لغة القرآن.. ويردّ ابن سلام هذا الظن بقوله: إن تلك اللغة التي تكلمها إسماعيل مختلفة عن العربية القرآنية، ولكن يقرّ أنها «عربية» أيضاً، بوجه من الوجوه، أو بلهجة من اللهجات، ونضيف إلى نقد =

10 ـ لعلَّ الذين يقولون : إنَّ عربية إسماعيل ، هي عربية القرآن ، يقولون بأزلية اللغة ، ويستدلون على ذلك بأن القرآن كان مكتوباً في اللوح المحفوظ قبل نزوله ، وأن العربية القرآنية لغة أهل الجنة ، ورووا في هذا السبيل شعراً نسبوه إلى آدم قبل خروجه من الجنة . . إلخ .

قلتُ : هذه أمور تتعلق بالغيب لا يعلمها إلا الله ، ومع ذلك ، فإن كتابة القرآن في اللوح المحفوظ من الأزل ، لا تمنع من تكوين اللغة القرآنية على الأرض في وقت نزول القرآن أو قبله بقليل ؛ فالله تعالى يشمل علمه ما قبلُ ، وما بَعْد ، ومن علمه أن اللغة العربية ستكون على هذه الصفة وقت بعثة محمد ﷺ . وقد قال مؤرخو اللغة : إنَّ مما هيأه الله لهذه اللغة قبل الإسلام أن جمع العرب في أسواق في الحجاز ، قبيل موسم الحج ، يتناشدون الأشعار ، ويلقون الخطب ، فأدى ذلك إلى إيجاد قدر من اللغة المشتركة ، بين جميع القبائل العربية ، وهي اللغة التي نزل بها القرآن ، وكان هذا من تدبير الله على الأرض .

وأما القول بأن العربية الأخيرة ستكون لغة أهل الجنة ، فهذا يخالف الحديث : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، ومع ذلك فإن الله قادر على كلِّ شيء ، وقادر على أن يخلق المعجزات التي تخالف ما عهده الناس في الحياة الدنيا . والله أعلم .

11 ـ قال ابن حجر ، بعد رواية البخاري : «وتعلّم العربية منهم» : فيه إشعار بأن لسان أمه وأبيه لم يكن عربياً . .

قلتُ : إن كان يريد أنه ليس عربياً كعربيتنا الإسلامية ، فهذا صحيح .

وأما إن كان يريد : «ليس عربياً» مطلقاً ، فهذا بعيدٌ :

= ابن سلام : أن رواية مَنْ روى (نسي لسان أبيه) لا يوافق المنطق الاجتماعي ، أو سنن الله في خلقه . فإسماعيل أخذ إلى مكة طفلاً رضيعاً لا يعرف شيئاً من لغة أبيه ، فمن سنة الله في خلقه أن يأخذ الطفل لغة مَنْ يعيش بينهم . على معنى : كلّ طفل يولد على الفطرة ، وأبواه ينصرانه أو يمجسانه ، فقولهم : إنه نسي ، لا يستقيم . والله أعلم .

فاللغة التي كان يتكلمها إبراهيم في «بابل»، وفي بلاد الشام، هي لهجة عربية عتيقة: فاسم إبراهيم: عربي، بمعنى الأب الرحيم، أو الأب العالي المقام.. وإسماعيل: اسم عربي، بلفظ «يسمع الله» «يسمع + إيل»، و«إيل» اسم (الله) في اللغات العربية العتيقة. ومنه جبريل، وإسرافيل.. و«هاجر» أم إسماعيل، اسمها عربي، من «الهجرة». و«بابل» التي هاجر منها إبراهيم اسم عربي مركب «باب + إيل»؛ أي: باب الله.. وقد هاجر إبراهيم إلى الأرض المباركة (أرض الشام)، وكان يسكنها قوم من الكنعانيين، وقد اتفق المؤرخون أن الكنعانيين من العرب، ودلّتْ الآثار أن لغتهم هي إحدى اللهجات العربية، بل هم الذين وضعوا الحروف الهجائية للكتابة، وأخذها العالم منهم.

لقد جاء إبراهيم إلى أرض كنعان، وعاش بينهم، وحاورهم، وكلمهم وكلموه بلغة مشتركة، هي اللغة العربية. وأرسل الله لوطاً إلى قوم في غور البحر الميت، وكلّ نبيٍّ يُرسل إلى قوم يعرف لغتهم (بلسان قومه).. ومع وجود اللهجات المتعددة فإن قدراً من اللغة كان سائداً في الجزيرة العربية كلها، فعندما استقرت هاجر وابنها في مكة، ونبع ماء زمزم، جرى حوار بينها وبين قبيلة جرهم، حول الإذن بالانتفاع من الماء، وكان بينهما جوار وحوار وتفاهم.. وجاء إبراهيم إلى مكة بعد أن كبر إسماعيل وتزوج، وحاور إبراهيم زوجتي إسماعيل في كلام طويل.. فلو كانت اللغات متباعدة، لم يحصل الفهم والإفهام، ثم جاء إبراهيم، وكان حوار مع ابنه إسماعيل في قصة الذبح نقله إلينا القرآن، ثم كانت المشاركة في بناء الكعبة، كلّ هذا شاهد على وجود لغة مشتركة..

12 ـ وإذا صحَّ أن إسماعيل تعلّم العربية منهم.. فإنه يكون قد تعلّم لهجتهم في الكلام. واللهجات ـ بمعنى طريقة، أو صورة نطق الكلمات والحروف، مع ثبات الجذر ـ شيء يتأثر بالبيئة الاجتماعية أو الجغرافية، واختلاف البيئات موجود منذ أن خلق الله الخلق، وأسكن كلّ قوم في مكان.

وربما يصح أن نمثل أو نشبه اللهجات قديماً، باللهجات في العصر الحديث، فلو أن طفلاً مصرياً رضيعاً انتقل إلى بلاد الشام وعاش طفولته وشبابه مع أبناء الشام،

فسوف يكبر وقد أخذ لهجة شامية، ولكنها لهجة عربية إذا عاد هذا المصري إلى موطنه الأصلي، وخاطب المصريين باللهجة الشامية، فسيكون بينهم قدر كبير مشترك من الفهم.

وقد سمّى الرواة ما تعلمه إسماعيل: «اللغة العربية»؛ لظنهم أن «العربية» كانت سائدة فقط في تلك الديار، ولزعمهم أن أول مَنْ تكلم العربية «يعرب بن قحطان». وقبيلة جرهم من سلالة قحطان كما يزعمون، والحقيقة أنه تعلم لهجة جرهميّة، ذات صلة بلهجات سادت في الشام والعراق، ولم تكن يومها توصف بأنها «عربية»، وإنما تضاف إلى القبيلة أو القوم، ثم جمعها اسم «اللغة العربية». والله أعلم.